الدرس الثـامــن/ الاتجـــاه الاجتماعــي:

ثمة علاقة بين الأدب والمجتمع، إذ قرّرها الفلاسفة والعلماء منذ القديم في ظل (نظرية المحاكاة والانعكاس) وشتى الآراء والأفكار المطروحة في هذا المجال، ولم تكن تظهر نظرية (الجدلية الماركسية) حتى تأسس على بنيانها (**المنهج الاجتماعي للأدب**)، أحد المناهج الرئيسية في الدراسات الأدبية والنقدية. وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع في مختلف المستويات، ويدرس ويحلل العلاقة بين المجتمع والأدب باعتباره انعكاسًا للحياة. وقد نشأ هذا المنهج ـ تقريبا ـ في أحضان المنهج التاريخي، واستسقى منطلقاته الأولى منه: خاصة عند هؤلاء المفكرين والنقاد الذين استوعبوا فكرة تاريخية الأدب، ولقد أسفر ذلك كله عن توجه عام للربط بين الأدب والمجتمع، إذ سرعان ما تَحوَّل هذا(**الوعي التاريخي**) إلى (**وعي اجتماعي**) يرتبط بطبيعة المستويات المتعددة للمجتمع، وبفكرة الطبقات الاجتماعية، وليس على المستوى الفردي، بمعنى أنّه كلما اعتبرنا الأعمال الأدبية تعبيرا عن الواقع الخارجي كان ذلك مدخلا لربطها بتفاعلات المجتمع وأبنيته ونظمه وتحولاته، باعتبار هذا الواقع هو المنتج الفعلي للأعمال الأدبية والفنية.

ولقد أسهمت(**نظرية الانعكاس**) التي طورتها(**الواقعية**) في تعزيز هذا التوجه الاجتماعي لدراسة الأدب، لذا كانت (**الماركسية**) و(**الواقعية الغربية**) تعمل جنبًا إلى جنب في تعميق الاتجاه إلى الاعتداد بالنقد الاجتماعي في مطلع القرن العشرين، مما أسفر عن ظهور تطورات مهمة للنقد الاجتماعي، وقد برز منظر ــ انطلاقا من الموروث التاريخي الذي خلفه (كارل ماركس) ــ وهو (**جورج لوكاتش** 1885–1971) فيلسوف الواقعية، وذلك عندما حلل ودرس العلاقة بين الأدب والمجتمع، باعتبار أنّ الأدب انعكاسا وتمثيلا للحياة، وتعد هذه الدراسات اسهاما في نوع آخر من الدراسات السوسيولوجية للآداب أطلق عليها(**سوسيولوجيا الأجناس الأدبية**). ويخطو (لوكاتش) خطوة أعمق في نظرته للعلاقة بين الشكل والمضمون، فهو يقرّ بحقيقة ربط العمل الفني والواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي القائم، لكن الإبداع الفني برأيه لا يخضع للشروط الأدبية ـ فحسب ـ بل يستند إلى شكل حال تاريخي محددة، يقوم الكاتب بالتعبير عنها وإعطائها شكلاً فنيًا يتناسب معها.

ثم جاء بعده" **لوسيان غولدمان**" الذي يعتبر أكبر منظر لهذا التيار من سوسيولوجيا الأدب، فينطلق "غولدمان" من مبادئ " لوكاتش"، وطورها واصطنع جملة من المصطلحات الجديدة والتقنيات الإجرائية التحليلية المبتكرة، حتى بنى اتجاهًا يطلق عليه (**علم الاجتماع الإبداع الأدبي**) وهو يهتم بالدرجة الأولى بالجانب الكيفي وليس الكمي.

*ــ اعتمد " لوسيان غولدمان" على مجموعة من المبادئ العميقة والمتشابكة التي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

أولا/ يرى أنّ الأعمال الأدبية لا تعبر عن الأفراد، ولا تعامل باعتبارها تعبيرا عن وجهة نظر شخصية، بل هي تعبير عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة، بمعنى أنّ الأديب وإن كان فردًا لكنه يختزل فيه وعي وضمير الجماعة ورؤيتها التي ينتمي إليها.

ثانيا/ إنّ الأعمال الأدبية تتميز بأبنية دلالية كلية، وهي ما يفهم من العمل الأدبي في إجماله، وهذه الأبنية الدلالية تختلف من عمل لآخر، ويمكن أن نجد تناظرا بين(الوعي الجماعي) من ناحية و(البنية الدلالية) من ناحية أخرى،

بمعنى عندما نقرأ أعمالاً، فإننا نجده يعكس المفهوم الفكري للوعي والضمير الاجتماعيين المتبلورين لدى الأديب.

ثالثا/ إنّ النص الأدبي برأي" لوسيان غولدمان" هو بنية متولدة عن بنية أشمل وأعمق هي البنية الاجتماعية للجماعة أو الطبقة التي يمثلها المبدع، ولهذا لا بد من دراسة النص الأدبي للكشف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة أو للجماعة الاجتماعية التي يعبر عنها الكاتب. ونقطة الاتصال بين البنية الدلالية هي العمل الأدبي والوعي الاجتماعي الطبقي، هي أهم الحلقات عند" لوسيان غولدمان" والتي يطلق عليها مصطلح (**رؤية العالم**)، فكل عمل أدبي يتضمن (رؤية للعالم) ليس العمل الأدبي المنفرد ـ فحسب ـ وإنّما الإنتاج الأدبي الكلي للأديب. وعن طريق (رؤية العالم) يمكننا أن نرى بشكل صاف كيفية تبلور العلاقة الخلاقة بين الأعمال الإبداعية من ناحية والوقائع الاجتماعية الخارجية من ناحية ثانية. وانطلاقا من هذا المنظور في (علم اجتماع لإبداع الأدبي) أسس" غولدمان" منهجه في (سوسيولوجيا الأدب) والذي يطلق عليه المنهج " **التوليدي**" أو" **التكويني**"، كما أنه لم يغفل إطلاقا الجانب(**الكيفي**) لشرح مدى العلاقة بين الأعمال الأدبية والوعي الجماعي، عندما جعل مستوى الأديب يتمثل في قدرته على صياغة (رؤية للعالم) وهي التي تعبر عن الوعي الجماعي المتحقق والممكن في الآن ذاته. ويظل مصطلح "رؤية العالم"من أهم المصطلحات التي تعين الناقد على اجراء المقاربة من منظور سوسيولوجي أدبي.

ومن أهم المصطلحات التي عرفها هذا النقد: مصطلح: النقد الماركسي، والنقد الإيديولوجي، والنقد الواقعي الاشتراكي والنقد الاجتماعي، وهذا تبعًا للاتجاهات والنزعات التي تفرعت عن الفلسفة الأم وتبعًا لخصوصية كل ناقد في استثمارها.

*ـ ومما سبق نستخلص بعض الخصائص والأسس للنقد الاجتماعي:

1- هو نقد مضموني، بمعنى يهتم بمضمون النص.
2- الأدب ناقل ومروج للأفكار السياسية.
3- نقد تقويمي، يعلي من شأن الأديب الملتزم بقضايا أمته.
4- الالتزام مبدأ أساسي، معناه أن يلتزم الأديب بقضايا مجتمعه، ويتجند لتصويرها والدفاع عنها.
5- فهو نقد تفسيري، يحاول الناقد من خلاله إبراز الدلالات الاجتماعية أو التاريخية الكامنة في الأعمال الأدبية.
6- ربط الأدب بالمجتمع على أنه لسانه،فالأدب صورة للعصر والمجتمع،والأعمال الأدبية وثائق تاريخية واجتماعية
7- الأديب يؤثر في مجتمعه ويتأثر به، ورؤيته تتبلور بتأثير المجتمع والمحيط... .

8- الأدب جزء من النظام الاجتماعي وهو كسائر الفنون ظاهرة اجتماعية ووظيفة اجتماعية.
9- النظام الاقتصادي هو الذي يحدد طبيعة الايديولوجيا.

**ـ الاتجاه الاجتماعـــي فـــي الخطاب النقدي الجزائـــــــري:

وعلى غرار سائر البلاد العربية استغرق النقد الاجتماعي حيّزا كبيرا من الكتابات النقدية الجزائرية تجلت في هيمنته الشاملة عليها خلال **العشرية السبعينية من القرن العشرين** بصورة لافتة حيث هيمنت " الإيديولوجية الاشتراكية" على الحياة الجزائرية العامة(سياسة واقتصادا وثقافة) وأفرزت الثورات الثلاث (الزراعية والصناعية والثقافية) وعرفت البلاد في ضوئها حركات التأميم والتسيير الذاتي للمؤسسات والمخططات التنموية.

وضمن هذا الإطار ظهرت موجة نقدية تدعو إلى التشديد على البعد الاجتماعي للنص الأدبي وتقاربه من مدى تمثله لهذه الزاوية (البعد الاجتماعي)، ومدى مواكبته لهذه التحولات الاجتماعية الجديدة، وبدأ الخطاب النقدي ينفتح على إيديولوجية (**لينين**) و(**ماركس**)، وأخرى أدبية نقدية على(**لوكاتش**) و(**غولدمان**)، مثلما بدأ البحث يتعمق في علاقة الأدب بالايديولوجيا على النحو الذي فعله **"**عمار بلحسن**"**، ويقوم به "واسيني العرج" في جل دراساته وامتد ذلك حتى إلى حقل الترجمة حيث ترجم "مرزاق بقطاش" (كتاب الرواية: لجورج لوكاتش)، وكان من نتايج ذلك التطور النقدي أن ظهر ركام إبداعي نقدي معتبر، يتحرك ضمن هذا الفضاء المنهجي أمثال "محمد مصايف" و"واسيني العرج" و" زينب الأعوج" و"عمر بن قينة" و"محمد ساري" و"عبد الله ركيبي"... وتبقى مرحلة السبعينيات من القرن العشرين، هي مرحلة النقد الاجتماعي وسيطرته على الحركة النقدية بدون منازع، وهذا راجع في المقام الأول إلى انتشار المذهب الاشتراكي (فكرا وأدبا واقتصادا) في الوطن العربي بصورة عامة، والجزائر بصورة خاصة.